تفريغ المحاضرة (١١)



من سلسلة لقاءات فتح المجيد في بيان خطورة الشرك وأهمية العناية بالتوحيد

محاضرة علمية بعنوان:

واجب العلماء والدعاة تجاه مظاهر الشرك المنتشرة في المجتمعات

لفضيلة الشيخ علي الوصيفي حفظه الله

وجهت لمدينة كلميم المغربية حرسها الله

تفريغ المحاضرة (١١) من :

سلسلة لقاءات فتح المجيد في بيان خطورة الشرك وأهمية العناية بالتوحيد

محاضرة علمية بعنوان

واجب العلماء والدعاة تجاه مظاهر الشرك المنتشرة في المجتمعات

لفضيلة الشيخ

علي الوصيفي

-حفظه الله-

وجهت

لمدينة كلميم بالمملكة المغربية

حرسها الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأصلي وأسلم على خير خلقه وسيد أوليائه محمد صلى الله عليه وسلم.

أما بعد. فإلى الإخوة الأفاضل من أبناء مدينة كلميم في جنوب المغرب حرسها الله سبحانه وتعالى بتوفيقه، وإلى سائر الإخوة الأفاضل في بلاد المغرب وغيرها من بلاد المسلمين. بعد الحمد لله تعالى والثناء عليه بما يليق بجلاله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول: إن هذه الحياة الدنيا التي خلقنا الله سبحانه وتعالى فيها قد خلقها الله تعالى لنفسه ولم يخلقها لغيره ، وأوجب علينا فيها أمرا عظيما، ألا وهو عبادة الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، والكفر بالطاغوت، ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، قال سبحانه وتعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل : 36]

وتلك هي الغاية العظمى التي خلق الله سبحانه وتعالى من أجلها السماوات والأرض ،كما دل على ذلك قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق : 12]،وموجب هذا العلم ومقتضاه هو أن نعبد الله سبحانه وتعالى حق عبادته، ونعظمه ونقدّره حق قدره، ونثبت له الكمال المطلق في أسمائه تبارك وتعالى وصفاته، ونحمده على عظمة ذاته وتفرده بالوحدانية والألوهية وكذلك على جميع نعمه وآلائه ، ونستسلم لأوامره وشرعه ، قال سبحانه وتعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)}[الذاريات : 56-58].

وكان من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل لهذه الدعوة أي دعوة التوحيد أعداء من ألد الأعداء ، يمكرون بها بالليل والنهار ،كما قال سبحانه وتعالى:{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام : 123]، وقال سبحانه وتعالى عنهم:{ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ} [سبإ : 33].

ومن حكمته سبحانه وتعالى أن يجعل وجود هؤلاء المجرمين سبيلا إلى معرفة الحق وعبادة الله سبحانه وتعالى، لأن عبادة الله سبحانه وتعالى تتأتى من وجهين:

الوجه الأول: معرفة أسماء الله تبارك وتعالى وكمالاته وكمالات أسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا يدفعنا إلى أن نتعبد لله سبحانه وتعالى بمقتضى أسمائه وصفاته، إذ أن لكل اسم من أسمائه تعالى وكل صفة من صفاته عبادة خاصة ينبغي أن نقوم بها كما حكم وقضى .

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى خلق الشر بجميع صوره وأشكاله ، وجعل من رؤوسه الشياطين، وجعل في كل قرية أكابر مجرميها يدعون الناس إلى الباطل، ويرفعون راية الشرك ، ويمنعون الناس من الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا من أعظم الفساد الذى نهى الله تعالى عنه، قال : {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف : 56]، ولا شك أن وقوع هذا الفساد وهذا الشر يدفع الدعاة إلى الله تعالى إلى اللجأ إليه والاستغاثة به والاعتصام به لدفعه وصرفه، ومن ثم يتحقق دعاء الله تعالى بأسماء وصفات لا يمكن أن يكون إلا في وجود هذا الشر، وكذلك لما انتشر أهل الشرك والفساد وأهل البدع والأهواء وعرضوا ما عندهم من شبهات، تبين للخاصة والعامة أن هذه الشبهات لا قيمة لها ولا وزن لها، ولكنهم ظنوها أدلة وبراهين تؤكد صحة ما هم عليه من الباطل والضلال، وهى ليست بأدلة ولا ببراهين ، ولكنهم ظنوها كذلك عدوانا وظلما وجهلا بحقيقة الحق الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسله وأنبيائه، فكان لزاما على أهل الحق من علماء الأمه أن يشمروا عن ساعد الجد ، وأن يسعوا في الأرض سعيا

حثيثا بالدعوة إلى الله تعالى، بما آتاهم الله تعالى من العلم والإيمان ، وبما أنار بصيرتهم وقلوبهم بنور القرآن والسنة وأقوال الصحابة رضى الله عنهم والأئمة، وبما أعطاهم من المواعظ والحكم والآداب والصبر على المصاعب والمحن ، لنشر الحق وإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، ودحض الباطل بجميع صوره وأشكاله، ورد كافة الشبهات التي يلتبس على الناس فهمها والعلم بها، حتى يرجع الناس إلى دين الله تعالى كما أنزل غضا طريا على رسله وأنبيائه.

وقد كانت هذه من جملة العلل التي خلق الله تعالى من أجلها أهل الباطل ، أن يظهروا شبهاتهم ليرد عليها أهل العلم والإيمان ، بما يدحضها ، ولتكون حجة الله تعالى ظاهرة عليهم، ولذلك لا تجد أبدا شبهة لأهل الشرك وأهل الكفر إلا وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه ورد عليها وأبطلها، ولا تجد شبهة لأهل البدع والضلال إلا وانتصب لها علماء الإسلام وردوها وبينوا الحق الذي لله سبحانه وتعالى.

فإن الأدلة والبراهين هي التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله وأنبيائه والدليل الحق هو الذى يدل على صدق المدلول عليه، كما يدل على عظم علمه وجلال قدره ورحمته بالخلائق، والدليل الحق هو الذى يؤكد صدق دعوة الرسل والأنبياء، وأن الله سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة ، فالله تعالى أعلى وأعلم وأرحم وأعظم وأجل وأكرم من أن يترك عباده بغير حجة ولا برهان، ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب حتى لا يكون لأحد حجة على الله تعالى ، قال تعالى: {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ

لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء : 165]، وقد كان القرآن كافيا في الدلالة على ما يستحقه الله تعالى من الكمال والحمد والتعظيم والعبادة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}

[يونس : 57]، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} [النساء : 174].

ومن جملة البراهين الدالة على استحقاق الله تعالى للعبادة ما سطره الله سبحانه وتعالى بتقديره في هذا الكون الجامع لمشاهد الربوبية باختلاف صورها وأشكالها، والتي تأخذ بلُباب القلوب والعقول إلى محبة الله تعالى، وتعظيمه وعبادته، كما بين الله سبحانه وتعالى في كتابه: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} **[فصلت : 53]**.

هذا فضلا عن العلوم الفطرية الضرورية والعلوم العقلية الصريحة الدالة على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة، بما أغنى الله تعالى عباده عن علوم المتكلمين والنظار والفلاسفة الذين خسروا أنفسهم، وضل سعيهم في الحياة الدنيا، بما حشروا في عقول الناس من الضلالات والخرفات، التي صرفت كثيرا منهم عن عبادة الله تعالى وتوحيده وإخلاص الدين له .

وليس عند الكفار ولا المشركين، ولا أهل البدع الضالين أدلة ولا براهين ينتصبون بها لا لرد الحق ولا لإقامة الباطل، فلا علم عندهم ولا صدق ولا بيان ولا برهان، وهذا هو ما اعترف به شيخهم في الضلال والكفر عندما {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [ابراهيم : 22]، والمراد أن الشيطان قال لهم ليس عندي حجه ولا دليل ولا برهان، كي أبرر لكم هذا الباطل الذي دعوتكم إليه، ليس إلا أنكم استجبتم بأهوائكم وعقولكم الخرقاء وأفهامكم الضعيفة ونفوسكم الهزيلة وعزائمكم الخائرة فاستجبتم لما دعوتكم إليه بغير حجه ولا دليل ولا برهان.

فحجج الله تعالى هي البالغة ولا حجة لأحد سواه، ولذلك لما أنزل الله آدم عليه السلام عمل بالتوحيد هو وأبناؤه من بعده إلى عشرة قرون حتى نوح عليه السلام، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما، ثم بعد ذلك وقع الشرك في قوم نوح، فأرسل الله عز وجل إليهم نوحا عليه السلام، قال سبحانه: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3)} [نوح : 1-3]، فنوح عليه السلام جاء بعبادة الله سبحانه وتعالى وحده والكفر بالطاغوت، والمراد بالتوحيد إفراد الله تعالى

بالكمال المطلق والعبادة الخالصة أما **الطاغوت**: فهو كل ما جاوز الحد في العصيان، وهو "**كل ما عبد من دون الله تعالى** " ،كما قال الإمام مالك وغيره من أئمة السلف رضى الله عنهم، وكما قال ابن القيم هو: " **كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع** " أه.

فلما دعا نوح عليه السلام قومه إلى توحيد الله تعالى كذبوه واجتمعوا عليه وتواصوا فيما بينهم على الكفر به ، **{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24)}** **[نوح : 23–24]**، فدعاهم ليلا ونهار وأمرهم بالاستغفار والتوبة إلى الله تعالى فقال: **{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (12)}**

[نوح : 10–12]، فلا تجعلوا بينكم وبين الله تعالى وسائط في الدعاء والعبادة، فالله لا يحجبه حاجب عن خلقه، وإنما الحجّاب للملوك العاجزين ، أما الله سبحانه وتعالى فإنه يعلم ما كان وما يكون، ويسمع دبيب النملة على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويسمع الخلائق جميعا ويستجيب دعاءهم، وهو واسع الرحمات، وهو الإله الحق الذى له العبادة والمحبة وله الخوف والرجاء، وهو الرب الخالق الرازق المدبر، وبين أمر الربوبية وبين الخلائق تتواصل رحمة الله سبحانه وتعالى **{إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}**

[الحج : 65]، فأبوا أن يستجيبوا لدعوة نوح عليه السلام، فدعا نوح ربه{وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)} [نوح : 26-27]، ففتح أبواب السماء بالماء ، وفجر الله تعالى الأرض عيونا {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12)} [القمر : 11-12].

فانظروا أيها الإخوة كيف أغرق الله عز وجل الأرض جميعا من أجل ثمانين رجلا أو أكثر أو أقل آمنوا مع نوح عليه السلام، وإنما ذلك من أجل كلمة التوحيد وشرف أهلها، فكلمة التوحيد هي أعظم كلمة في الوجود، وهي التي يترسخ بها بقاء الإنسان على هذه الأرض، فإذا زالت كلمة التوحيد وانتشر الشرك في الأرض لم يبال الله سبحانه وتعالى بالأرض ولا بمن عليها كما فعل الله تعالى بالأمم السابقة ، قال تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت : 40].

ولو أننا نظرنا في بقاء الكعبة بعد أن هجم أبرهة النجاشي ملك الحبشة على مكة المكرمة في عام الفيل، وأراد أن يدمر الكعبة، لم يمكنه الله سبحانه وتعالى من ذلك، لماذا؟ لأن هناك نبيا سيبعث في آخر الزمان، وستكون الكعبة منارة للتوحيد، وعلما لكلمة لا إله إلا الله، وسيحج الناس من جميع

أرجاء الأرض إلى بيت الله الحرام، وجاء النبي ﷺ وانتشر التوحيد وانتشر الإسلام في شتى بقاع الأرض.

ولكن انظر ماذا يحدث بعد ذلك تجد فتىً حبشيا ضعيفا هزيلا يقوم بهدم الكعبة في آخر الزمان، حتى إنه سيلقي أحجارها في البحر، ومع ذلك يتركه الله تعالى ولا يفعل الله عز وجل به كما فعل بأبرهة الحبشي، وذلك لأن كلمة التوحيد ارتفعت، ولأن العمار والحجاج انقطعوا عن بيت الله الحرام، فإذا انقطع الناس عن الدين وعن الإسلام وعن التوحيد وعن الملة قطع الله دابرهم{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام : 45]، قال سبحانه وتعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ} [المائدة : 97] .

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة النبوية : " قال ابن عباس رضي الله عنهما :" لو ترك الناس الحج سنة واحدة لما نوظروا ، وقال : " لو اجتمع الناس على أن لا يحجوا لسقطت السماء على الأرض ، ذكره الإمام أحمد في المناسك " أهـ ولذلك فإن الساعة لا تقوم إلا على فجار الناس وضُلالهم ، وذلك في وقت لا يبق فيه أحد يقول الله، حينئذ لا قيمة للأرض ولا لمن فيها، فإذا انقطع الأمر بالمعروف وانتهى الدعاة إلى الحق ولم يبق في الناس مصلح فهذا بشير نذير لعقاب الله سبحانه وتعالى للخلائق .

وكما قدمنا من قبل فإن جميع أنواع الشرك التي وقعت في الأرض قد أبطلها الله عز وجل بدعوة الرسل والأنبياء.

فالذين عطلوا ذات الله سبحانه وتعالى وجحدوا وجوده سبحانه وتعالى أرسل الله عز وجل إليهم الرسل والأنبياء، فإبراهيم عليه السلام ذهب إلى النمرود وقال له :{رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} **فكان رد النمرود عليه :**

{ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ }[البقرة : 258]، يعني أنا لي ما لربك يا إبراهيم من الإحياء والإماتة، فلما أراد أن يعطل ذات الله سبحانه وتعالى أو يقول بالتسوية بينه وبين الله بهته إبراهيم عليه السلام بقوله:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة : 258]، والحجه هنا أيها الإخوة في التصرف المطلق، فقد يدعي الإنسان تصرفا قاصرا مقيدا بحال، ولكنه لا يمكن أبدا أن يدعي التصرف المطلق في هذا الوجود، وحاج إبراهيم عباد النجوم والكواكب، وحاج عباد الأصنام، وبين إبراهيم أن العبادة الحقة لله سبحانه وتعالى، الذي لا يغيب إذا سألته.

وهؤلاء أي عباد النجوم والكواكب كانوا مقرين بوجود الله سبحانه وتعالى، ولكنهم كانوا يعبدون النجوم والكواكب من دون الله تعالى، كما بين الله عز وجل في مناظرة إبراهيم: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا

رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)} [الأنعام : 76–79]، فإبراهيم عليه السلام بين لهم أن الله الحق لا يغيب عن السائلين والمستغيثين والمتضرعين، أما هذه النجوم وتلك الكواكب فإنها تأتي وتغيب، فهي عندما تكون موجودة فآثارها ظاهرة في الإضاءة والدلالة على الاتجاهات المختلفة ، ولكنها عندما تغيب فليس لها آثار ولا دلالات، بل ولا تستجيب لمن دعاها على أي حال، أما الله سبحانه وتعالى فهو حاضر شاهد على كل إنسان، إذا سأله فإنه يوفيه سؤاله، كما قال تعالى : { وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ } [النور : 39] فهو تعالى الغياث ، الموجود الذى إذا سألته وجدته، وليس ذلك لأحد فى الوجود إلا لله تعالى.

ولما وقع الشرك من قوم عاد أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم أخاهم هودا{۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ}[الأعراف : 65].

ولما وقع الشرك في قوم ثمود، أرسل الله عز وجل إليهم أخاهم صالح، قال تعالى :{وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ } [الأعراف : 73] وأرسل الله عز وجل يونس عليه السلام إلى قومه :{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147)}والمعنى " بل يزيدون " { فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (148)} [الصافات : 147–148].

وكذلك أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون ، وقال له :

{اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} [النازعات : 17]، وناظر موسى عليه السلام فرعون، ولما سأله عن دعوته : {قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (49)} رد عليه موسى عليه السلام قائلا: { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (50)} [طه : 49-50]، وقد كان فرعون معطلا لوجود الله سبحانه وتعالى، وهو في الحقيقة يعلم في نفسه أنه كاذب، لأن موسى عليه السلام لما أظهر له الآيات قال له : {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء : 102]، ففرعون عطل وجود الصانع عن مصنوعه والمصنوع عن صانعه _أي المخلوق عن خالقه_ وجعل نفسه ربا للعالمين فقال:

{وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف : 51]

وقال :{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ} [النازعات : 24]

وقال : {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [القصص : 38] فماذا فعل الله عز وجل به؟ أغرقه وأذله وأخزاه، وجعل المخلوق الذي كان يدعي أنه ربه جعله فوق رأسه، قال تعالى : {فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا} [الإسراء

: 103]، فكلما ظهر شرك في الأرض، تجد الله سبحانه وتعالى لا يترك هذا الشرك قائما حتى يبطله، ويُظهر دعوة التوحيد عالية خفاقة، وينصرها الله سبحانه وتعالى، ويؤيدها بالمعجزات، ويؤيدها بجنود من عنده سبحانه، وقد أيد الله سبحانه وتعالى رسله وأنبياءه، ونصرهم في جميع معاركهم مع الكفار والمشركين، ولم يقتل نبي في جهاد ولا في معركة، وإنما قد يقتل في غير المعركة، أما وهو قائم في أمر الجهاد في سبيل الله فإن الله سبحانه وتعالى ينصره على عدوه، ويؤيده بجند من عنده ، قال تعالى{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ} [المدثر : 31]،

وكذلك نصر الله سبحانه نبيه محمد ﷺ وأيده بالرسالة، وأيده بجنود من عنده، {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13)} [الأنفال : 12-13]، كما أيده بالصحب الكرام الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، الذين هم باتفاق الأمة من جملة الآيات التي أكرمه الله تعالى بها، قال تعالى : {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ} [الفتح : 29]، وانتشر دين الله تعالى في شتى أرجاء الأرض، فقاتلوا الناس في أول الأمر على تنزيل القرآن، وقاتلوهم في آخر الأمر على التأويل والتعطيل، وجاء التابعون من بعدهم بإحسان فاتبعوا ولم يبتدعوا ، ونشروا الإسلام فى شتى بقاع الأرض،

وأناروا القرى والمدائن بنور التوحيد والسنة ، يقتفون أمر الله تعالى، وينفذون وصيته لنبيه صلى الله عليه وسلم {قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف : 108]، وقوله : {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آلعمران : 104]،

فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وقد علموا أن هذا أمر واجب عليهم ، وهو كذلك على كل من له القدرة على ذلك بالعلم والسلطان، ومن عجز فعليه أن ينكر بقلبه، وهذا هو آخر المواضع التي ينكر بها المنكر ويعرف بها المعروف، ولا موضع بعده لقول النبي ﷺ "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[1] ويلزم من هذا البيان أن يعرف الداعي المنكر حتى يدعو إلى المعروف، وأن يعرف الشرك حتى يدعو إلى التوحيد، وأن يعرف البدعة حتى يثبت على السنة ويدعو إليها.

وهكذا في كل زمان ينصب الله تعالى لكل فتنة من يردها ، ولما وقعت الردة في زمن أبي بكر رضى الله عنه وانقسم الناس بين مرتد كافر وجاحد للزكاة ، وبين مؤول جاهل يرى أنها لا تعطى إلا لرسول الله ﷺ ، ولا تعطى

---
[1] رواه مسلم(٤٩).

لأحد بعده قاتلهم أبو بكر جميعا، وقال : " لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه "[2] أهـ

ولما وقعت فتنة خلق القرآن في زمن الإمام أحمد رضى الله عنه، وانتصب لها المعتزلة والجهمية بقوة السلطان ناظرهم الإمام أحمد ، وبين لهم أن القرآن كلام الله ،نزل من علم الله ، قال تعالى : {لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا} [النساء : 166]، وأن من قال إن القرآن مخلوق فقد قال إن علم الله مخلوق، وهذا من أعظم أنواع الكفر.

فابتلى أحمد –رحمه الله– بالسجن وصبر واحتسب، ونصره الله وأيده، وثبتت له الكلمة والإمامة، واجتمعت الأمة عليه ، وهكذا أقام الله تعالى لهذه الأمة الجهابذة من علماء الحديث، الذين غربلوا النصوص وبينوا الحق من الباطل والصحيح من الضعيف والسقيم من الصحيح والمقبول من المردود ، وظهر علم الرجال الذى صار سدا منيعا أمام كل كذاب مفتر على دين الله تعالى.

وكذلك لا تقع فتنة في الأرض ولا بدعة إلا ويقيض الله تعالى لها وليا من أوليائه، فيصدها ويدحضها، ويرد الناس إلى الحق المبين الذى كان عليه السلف الأولين.

[2] رواه البخاري(٧٢٨٤) ومسلم(٢٠).

فاعلموا أيها الإخوة أنه لا بقاء لكم إلا بقوة الله، ولا حيلة لكم في دفع الشر إلا بحيلة من الله، ولا تستمر دعوتكم إلا باستمراركم على دعوة التوحيد بالليل والنهار في السر والعلن، فاجعلوها شغلكم الشاغل، وانزعوا حظوظ أنفسكم من قلوبكم، واجعلوا همكم الأول نشر كلمة التوحيد، والإخلاص لله، ودعُوا النزاعات والخلافات والسفاهات وسفاسف الأمور ، قال رسول الله ﷺ "إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها"[3].

واعلموا أننا على خطر عظيم، وأن الفتنة إذا وقعت لا يسمع لقول عالم ولا لعاقل، فاحذروا أن تقع الفتنة بينكم ، فلا يبقى بينكم عالم ولا عاقل، احذروا من ذلك، ولا منجا لكم من الفتن إلا بأن تلجأوا إلى الله، وتنشغلوا بالعلم وتتمسكوا بالسنة وتنشروا كلمة التوحيد ، وتحاربوا أهل الشرك والبدعة بما آتاكم الله تعالى من العلم والبيان، وأن تجتمعوا دائما على دراسة التوحيد والسنة، وتفسير القرآن، لا تتركوا تفسير القرآن أبدا. فالقرآن فيه خير عظيم ونبأ جليل، فيه توحيد الله سبحانه وتعالى ، انظروا في دلالات الأسماء والصفات، وفي دلالات الأحكام الشرعية والأخلاق والآداب، انظروا في دلالات المعاملات و القصص والأخبار، وما حدث للرسل والأنبياء ولأعدائهم، أو ما يكون في الآخرة، كل ذلك يدل على توحيد الله سبحانه وتعالى ويدعوا إليه .

---

[3] صححه الألباني في" صحيح الجامع الصغير وزيادته"(١٨٩٠).

أشغلوا أنفسكم بنشر التوحيد والسنة ، وكما قال طلحة بْن عبيد اللَّه البغدادي رحمه الله :«وافق ركوبي ركوب أَحْمَد فِي السفينة فكان يطيل السكوت فإذا تكلم قَالَ: اللهم أمتنا عَلَى الإسلام والسنة»[4].

انشروا التوحيد في كل مكان وبلغوا عن رسول الله ،كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما أرسله إلى أهل اليمن : " ادعهم إلى أن يوحدوا الله "[5] الحديث.

وكما قال ﷺ صلى الله عليه وسلم :"بَلِّغوا عني ولو آيةً، وحَدِّثوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرَج ،ومَن كَذَبَ عليَّ متعَمِّداً؛ فلْيَتَبَوَّأ مَقْعَدَهُ مِن النارِ"[6].

ناظروا أهل البدع إن اضطررتم إلى ذلك ، لا تبتغون الانتصار لأنفسكم ، إنما لإقامة الحق لله تعالى ونشر التوحيد والسنة .

أرسلوا الهدايا والنصائح بالتوحيد والسنة وترك الشرك والبدعة لمن تعرفون ومن لا تعرفون ، أرسلوا الكتب المترجمة باللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات إلى من تعرفون من الأجانب .

حاولوا أن تجتمعوا دائما، وأن تتلاقوا، وأن تتزاوروا وأن تتهادوا، وأن يكون بينكم وبين بعضكم البعض صحبه ومحبة وإخوة وسلام .

---

[4] طبقات الحنابلة(١/١٧٩)
[5] رواه البخاري (٧٣٧٢).
[6] أخرجه البخاري(٣٤٦١)

واستعينوا بالولاة في نشر التوحيد ودفع الباطل، ولا تدهنوا في القول ولا تضعفوا عن إظهار الحق.

واجعلوا الحكمة والموعظة والذكاء والفهم ولين الجانب سبيلا لكم مع سائر المخالفين.

ولا تدفعوا الباطل بالباطل، ولا تنصروا الحق بالباطل، ولا تنتقموا لأنفسكم، ولا تسبوا أحدا، ولا تغضبوا إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله تعالى، كما كان دأب النبي صلى الله عليه وسلم من قبلكم .

وعليكم بالبيان بالقرآن والسنة، ومن اكتفى بالقرآن والسنة وأثار الصحابة والتابعين كفاه ذلك في إقامة الحجه ، كما قال تعالى : {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت : 51] وقال تعالى : {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [آل عمران : 101].

فمن أغناه الله بالكتاب والسنة لا يحتاج إلى طعن طاعن ولا إلى مسبة ساب فالحق قائم بنفسه، مستغن عن الباطل وأهله ، لأن الله عز وجل هو الحق.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقكم في تلك الدعوة، وأن يهدى على أيديكم سائر المسلمين، إنه تعالى ولى ذلك والقادر عليه.

كما أسأله تبارك وتعالى أن يثبتنا وإياكم على الدين، فإن أمر الدنيا خطير، وإن الإنسان لا يضمن كم سيعيش فيها ، وإن المرء إذا مات لا يمكن أن يعود إلى الدنيا ليصلح ما أفسد فيها، فالدنيا ليست تجربة، الدنيا مرحلة زمنية يقضي فيها الإنسان شأنه وحاله، ثم يرجع إلى الله تعالى، ولا يرد مرة أخرى إلى الدنيا .

فمن مضى في حكم الله سبحانه الشرعي ووافق ذلك حكم الله الكوني سعد في الدنيا والآخرة، ومن مضى في الحكم الكوني ولم يسع في الحكم الشرعي فقد خاب وخسر، ومن سعى في الحكم الشرعي ولم يوفقه الله سبحانه وتعالى إليه قدرا فقد خاب وخسر، أعاذنا الله وإياكم من الحور بعد الكور ومن النقص بعد الزيادة، كما أسأله تبارك وتعالى أن يجمع لنا الشرع مع القدر فنسعد في الدنيا والآخرة، وأن يختم لنا وإياكم بختام الإيمان.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.


المحاضرة (١٢)
تفريغ المحاضرة (١٢)
من سلسلة لقاءات فتح المجيد
في بيان خطورة الشرك وأهمية
العناية بالتوحيد
محاضرة علمية بعنوان:
التعليق على متن أصل الدين
وقاعدته أمران للإمام محمد التميمي
رحمه الله.
لفضيلة الشيخ : زكرياء العدني
حفظه الله
وجهت ببلدة بودريالة
بالمملكة المغربية حرسها الله
راع ورعية